مسافر بلا عنوان

جلس متولي في أحد أركان مراكب الصيد على أحد الشواطئ التابعة لمحافظة كفر الشيخ عند منتصف الليل في كامل يقظته، يطغو عليه القلق والترقب؛ فهو بانتظار المجهول حيث ينتظر انطلاق مركبته إلى أحد الشواطئ الأوروبية.

ولمن لا يعرف متولي فهو الشاب البالغ من العمر خمسة وعشرين عامًا، الحاصل على المؤهل المتوسط المتخصص في فنون الزراعة، لديه حفنة من الأشقاء والشقيقات منهم من اكتفى بالحصول على شهادة التعليم الأساسي، ومنهم من لم يعرف طريقًا للمدارس قط.

تعمل والدتهم كعاملة بوفية في إحدى المصالح الحكومية، ويعمل أبوهم في زراعة الأرض، حيث يمتلك عشرة قراريط زراعية، يساعده أبناؤه جميعًا في زراعتها باستثناء متولي، ذلك الشاب المتمرد المتعجرف الطامح للثراء الفاحش والعيش في أفخم القصور وسط حفنة من الجواري، وامتلاك الطائرات الخاصة يذهب بها للأماكن البعيدة التي لم يعرف مكانها أبدًا ولم يسمع عنها من قبل، يرى في انغلاقه على الزراعة والسكن داخل قريته والزواج من إحدى قريباته وأدًا لحياته التي يحلم بها، فلم يكن في يوم من الأيام على جدول طموحاته ورغباته العمل والكفاح وبناء الأسرة وإنجاب الأبناء وتعمير المجتمع؛ فهو المشترك الأبرز في جميع المسابقات التليفزيونية الكبرى من أجل الحصول على الجائزة المليونية التي قد تبعد عنه فكرة الاغتراب في بلاد اليورو، ويبدأ من المليون، رحلة الصعود المتمناة.

ذات يوم كان قد قرأ متولي بالصدفة البحتة إعلانًا عن فرصة عمل بإحدى الدول الأوروبية براتب مغرٍ عن طريق الهجرة دون أي تفاصيل إضافية، فكانت تلك هي الفرصة التي اعتقد متولي أنها الطريق الوحيد

والسريع لشعاع النور المرجو، حيث الحرية الجنسية المطلقة واحترام الفوارق الاجتماعية وتطبيق القانون الصارم وعدم التدخل في شؤون الآخرين حسبما يعتقد، حيث كان متولي قد تملك اليأس منه بعدما ذهب إلى إحدى الدول الخليجية بشكل شرعي، والتي عمل بها كفرد أمن نال منها الفتات نظير العمل لساعات طويلة تحت أشعة الشمس الحارقة، فعاد إلى عائلته خاويًا من الإنجازات والمكاسب، وما زاد الطين بلة تم رفض دخوله لأكثر من دولة أوروبية بالطرق القانونية التقليدية، تلك الدول التي تضع شروطًا صارمة لمن يريد السفر إليها، حيث يجب على من يريد السفر أن يثبت بشكل حقيقي وواقعي أن لديه الملاءمة المالية التي تجعل إقامته بداخلها أمرًا يسيرًا، وأن من يريد الدخول إلى بلادهم بغرض السياحة أو أي غرض مشابه يغمره الأمن والسلام لفترة محدودة مؤقتة، وأيضًا تقديم ما يثبت أن للفرد الأجنبي عنهم عظيم الدوافع التي تستدعي عودته لبلده الأم، وعدم تخلفه عن موعد عودته المتوقع والإقامة بشكل غير شرعي في بلادهم بحثًا عن فرصة عمل، مما يكلفهم أعباء اقتصادية كبيرة وبعض المخاطر الأمنية والاجتماعية لاختلاف

البيئة والعادات والتقاليد، خاصة أن مقومات متولي الشخصية لا تشفع له في الحصول على فرصة عمل تناسب المجتمع الأوروبي، فتلك الفرصة الملتوية كانت بمثابة طوق النجاة الأخير لتحقيق أمنيات متولي والحصول على الثراء المنشود رغم مخاطرها المتعددة.

وحينما تواصل مع منظمي رحلة الهجرة اصطدم متولي بالمبالغ الطائلة المطلوبة نظير السفر، فلم يجد أمامه إلا الضغط على أبيه لبيع مساحة من ممتلكاته الزراعية تساوي المبلغ المطلوب منه، وبعد تردد عظيم كان الاتفاق بإعطاء متولي المال المناسب للسفر ليقوم بإرجاعه كاملًا من مدخراته، وتخصيص مبلغ شهري إضافي يرسله متولي بشكل مستمر لعائلته للمساعدة في تكاليف المعيشة، مع تشديد والده بأن هذا المبلغ هو آخر مبلغ سيحصل عليه بعدما ساعده والده سابقًا عند سفره لبلاد الخليج، مهما كانت النتائج، ولن يساعده في تدبير نفقات زواجه، فوالده يريد أيضًا تأمين حياة باقي أبنائه وفق إمكانياته المحدودة.

مع انطلاق المركب تملك متولي شعور الخوف من المجهول، وتنامى لديه عدة أسئلة، أين سأكون بعد عدة أيام وفي أي وظيفة سيكون عملي

القادم؟ وهل بعد خمس سنوات سأكون من الأثرياء أم ماذا سيكون وضعي الجديد؟ ولكن عادل شعور الخوف لديه شعور خياله الممتع بالعودة إلى قريته والتباهي أمام معارفه بممتلكاته الغالية والتنعم بحياة الرغد الاقتصادي والرفاهية المبهرجة، استمر متولي على هذا النحو لمدة يومين كاملين لم يتناول فيهما الطعام إلا القليل، وعند اقتراب المركب من إحدى الدول الجنوبية للبحر المتوسط ومشاهدة أضوائها بالعين المجردة، أمر قائد المركب متولي وزملاءه بمغادرة المركب المخصصة للصيد في الأساس، والإكمال للشاطئ عن طريق السباحة، أو الذهاب إلى أي مكان ينشدونه دون أدنى مسؤولية عليه، فمهمته التي تقاضى مقابلها أموالًا باهظة قد انتهت في هذه اللحظة.

واجه متولي هذا التحدي الذي يعجز في تخطيه أمهر السباحين بكل شجاعة إلى أن خارت قواه البدنية أمام شاطئ أحد المنتجعات السياحية الواقعة جنوب إحدى الدول الأوروبية المطلة جنوبًا على البحر الأبيض المتوسط، فانتشلته إحدى المضيفات العاملة بالمنتجع سرًّا، والتي تدعى ليكسي، وقامت باستضافته في منزلها وقامت بتعليمه مبادئ لغة البلد

الوارد إليها في بضعة أيام، ووفرت له فرصة عمل في ذات المنتجع مقابل الدخول في علاقة حميمية معها، حيث كان الرجل الشرقي محل إعجاب وجاذبية قوية بالنسبة لها، وعلى مدار تسعة أشهر مدة إقامتهما معًا أعطى متولي ليكسي عظيم الحب والامتنان، وأصبح يعيش بنظام روتيني صارم مداه العمل والسكن وأحضان ليكسي لا غير.

جمع متولي طوال تلك الفترة أموالًا غزيرة بطرق مشروعة وغير مشروعة أيضًا، وأرسل الفتات منها لوالده عن طريق ليكسي، واحتفظ بالمتبقي وبدأ رحلة التخطيط لطموحاته الشخصية، حيث أصبح يتقن لغة البلد المقيم بها بشكل جيد، وبعدما بدأ في الملل من علاقته بليكسي التي رفضت قيود الزواج ، وعند تمكنه من التوغل والاندماج في مجتمعه الجديد وإن كان ما زال بشكل غير قانوني، قرر بشكل سري البحث عن فتاة أخرى للزواج منها، ليس للاستقرار أو للتعدد الجنسي؛ ولكن كان ذلك من أجل الحصول على الإقامة الشرعية في البلد المتواجد بها، تمهيدًا للحصول على الجنسية الرسمية الصريحة بمساعدة الزوجة الجديدة في

إنهاء المتطلبات الإجرائية والأمنية اللازمة، مقابل ما ادخره من أموال سابقة لتكون ثاني خطواته نحو هدفه قد أوشكت على التحقق.

وفي أحد الأيام عاد متولي إلى منزله بشكل مفاجئ ليجد ليكسي غارقة في أحضان أحدهم، فلم يشعر بنفسه إلا وهو يعتدى عليها وأيضًا على رفيقها بشكل مبرح، فلم يكن أمام ليكسي إلا أن تقوم بإبلاغ الجهات الأمنية المختصة، وما كان من متولي إلا الهرب إلى المجهول دون أدنى تجهيزات استعدادية، فأصبح مطاردًا من الأمن، سالكًا طريق الهرب، حيث بدأ في دفع فاتورة الفعل الغير مدروس، فلأول مرة يخضع متولي لسطوة البرد القارص وأمطار الثلوج أعلى أرصفة الشوارع، يتسول قوت يومه، يبحث عن عمل في الخفاء يبذل فيه عظيم الجهد مقابل عدد هزيل من ورق اليورو قد يكفي تلبية احتياجات قوت يومه من مأكل وملبس وقد يعجز عن ذلك، يحاول ألا تدري عنه الجهات المختصة شيئًا فلأول مرة يشعر متولي بمرارة الحياة الإنسانية والاجتماعية القاسية في المجتمع الأوروبي بشكل واقعي، فلم يجد مؤسسات وطنية

ترعاه عند مرضه في حالة عجزه عن توفير تدابير العلاج والمال، ولا توجد حالة التكافل بين أبناء الشعب مثلما تحدث في البلاد العربية ولا يستطيع الارتكاز إلى قانون وضعي يكفل له الإنسانية، فهو الوارد إلى بلاد الغرب بشكل تطفلي والمغتصب لخيراتهم ونماء اقتصادهم.

وفي إحدى الليالي قارصة البرودة أصابت متولي الحمة، والتي امتدت إلى الالتهاب الرئوي الحاد، ففقد على إثرها الوعي ليستيقظ من سباته العميق ليجد نفسه وحيدًا في إحدى المستشفيات، مقيدًا بقيد في أرجله وإحدى يديه، متحفظًا عليه تحت أمر الجهات الأمنية تمهيدًا لترحيله إلى وطنه عند تماثله للشفاء بعد استخراج وثيقة السفر الملائمة له.

وجد متولي نفسه وحيدًا لا أحد يلازمه في أزمة مرضه، فكان تساؤله أين والدتي تحنو عليَّ؟ أين أبي وأشقائي بجانبي ليشتد عضدي بهم، وأين أصدقائي وجلساتهم السامرة طوال الليل؟! فكانت فترة العجز المؤقت التي انتهت بالشفاء الشبه تام، والاستعداد للعودة إلى أحضان بلدته بمثابة الإفاقة الواقعية الواعية لمتولي، التي حدثت له وتيقن فيها معنى

كلمة وطن الأمن والأمان، وطن التكافل والكرامة، وطن الحقوق والواجبات، فلم يغضب متولي حينها بل انتابه شعور بالحنين لوطنه وبالأمان المفقود، حتى وإن كان مقيدًا بقيود حديدية، ينتظر المعاملة الاحتقارية عند ترحيله، فقد تعلم الدرس القاسي بأن نار الوطن أفضل بكثير من جنة زائفة في أوطان أخرى، قد تصبح جحيمًا بين لحظة وأخرى، وأنه لا سبيل له إلا الكفاح الشريف المتصاعد حتى وإن كان شاقًّا.

❋ ❋ ❋